﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النّساء: 47 - 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

دعــوةُ اليـهـود لـلإيـمـان بعد تَـزْجـيَـتِـهـم وترغيبهم فيه، وتخويفُ من أبى منـهـم، وأَصَـرَّ على الكفر

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن اليهودِ أنواعَ مَكرِهم وإيذائِهم، ورجَّاهم ﷺ بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾؛ أمَرهم بالإيمانِ، وقرَن بهذا الأمرِ الوَعِيدَ الشَّديدَ على التَّركِ؛ ليكونَ أدْعى لهم إلى الإيمانِ والتَّصديقِ به[1].

فخاطَبَ مَن يُرجَى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقَرَنَ بالوعيدِ البالغِ على تركِه، ثمَّ أزال خوفَهم من سوءِ الكبائرِ السَّابقةِ معلِّلًا لِتَحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا بوقوعهم في الشِّركِ،[2] فَقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

فضلًا عن أنَّه ﷺ لَمَّا هدَّد اليَهُود عَلَى الكفر، وبَيَّنَ أنَّ ذلك التَّهديد لا بدَّ من وقوعه لا محالة؛ ذكر أنَّ مِثْلَ هذا التَّهديد من خواصِّ الكفر، فأمَّا سائر الذُّنوب الَّتي هي مُغَايِرَةٌ للكفر؛ فليس حالها كَذَلكَ، بل هُوَ سبحانه قد يغفرها، ويعفو عنها، فلا جَرَمَ، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/667.
(2) أبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/667، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/297.
(3) ابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/190.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُصَدِّقًا﴾: مُؤكِّدًا لصدقه، والصِّدْقُ: ضِدُّ الكَذِبِ، يُقال: صَدَقَ يَصْدُقُ صِدْقًا، وصَدَّقَهُ تَصْدِيقًا: ضِدُّ كَذَّبَهُ، وأصل صَدَقَ: يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَ قول، ويُسْتعمل التَّصديق في كلِّ ما فيه تحقيق، يقال: صدَّقني فعله وكتابه، والمعنى هنا: محقِّقًا للَّذي معكم من التَّوراة الَّتي أنزلتها إلى موسى بن عمران [1] عليه السلام.

2) ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾: أي: نمحو تخطيطَ صُوَرِها وآثارها، فَنُصَيِّرها كالقَفا، أو نَمْحو ما فيها من عَيْنٍ وأَنْفٍ وحاجبٍ وفم، وأَصْلُ طَمَسَ: يدلُّ على محوِ الشَّيء ومَسْحِه، والطَّمس: إزالة الأثَرِ، وانْطَمَسَ الشَّيْء: امَّحى، ودَرَسَ[2].

3) ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: أي: نُصيِّرها كَأَقْفَائِهِمْ، ونجعَل وجوهَهُمْ من قِبَلِ أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوَجْهَ قَفًا، والقَفَا وَجْهًا، وأصل الرَّدِّ: رَجْعُ الشَّيْءِ، وصَرْفُه بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، يُقال: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا عن وَجْهِهِ: صَرَفْتُهُ، وأصْلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، ضِدُّ القُبُلِ[3].

4) ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾: المقصودُ بأصحابِ السَّبت: اليهودُ الَّذينَ اعْتَدَوْا في يوم السَّبت بِالْحِيلَةِ عَلَى الاِصْطِيَادِ، وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وذُكِرت قصَّتُهم في سُورتَي البَقرة والأعراف[4].

5) ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: كَذَبَ، واختَلَقَ، يُقال: فَرى فلانٌ الكَذبَ يفْريه؛ إذا اخْتَلقه، وافترى فلانٌ على فلان؛ إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قَذَفَ أبوَيْهِ، وأَصْلُ الفَرْيِ: قَطْعُ الشَّيْءِ، والافتراء: الاختلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، وكذلِكَ استُعمِلَ في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلْمِ[5]، وهو معنى اللفظة ههنا.

---

(1) الرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (صدق)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فَصْلُ الصَّاد، باب القاف)، وابن جرير، جامع البيان: 8/440.

(2) الجَوْهَرِيّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (طمس) ابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 460، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 139، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 917.

(3) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (رد)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (رد) و(دبر)، وابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/324، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 460.

(4) الرَّاغِب، المُفْرَدات، ص: 392، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 79، وابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/325.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (فرى)، والرّاغِب، المُفْرَدات: (فرى)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 31، 128، 280، والكَفَويّ، الكلِّيَّات: 154.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نـــداءُ الـلـه تـعـالى لأهـل الكتاب السَّابق وتـرغـيـبـهـم فـي الإيـمـان بالكتاب اللَّاحِقِ وتحذيرهم من الشِّرك

المعنى: يا أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ صَدِّقوا، واعملوا بما نزَّلنا من القرآن على النَّبيِّ محمَّد ﷺ الَّذي جاء مُحَقِّقًا لما معكم من التَّوراة والإنجيل، من قبل أن نمحوَ ما في الوجوه من الحواسِّ، ونجعلها ناحية أدبارهم، أو نَطْرُدَهُمْ من رحمة الله، كما طردنا الَّذين خالفوا أَمْرنا بفعل ما نُهُوا عنه من الصَّيد يوم السَّبْتِ بعد نَهْيِهِمْ عنه، فَمَسَخَهُمُ الله قِرَدَةً، وكان أَمْرُهُ تعالى وقَدَرُهُ واقعًا لا محالة.

إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرِكَ به شيءٌ من مخلوقاته، ويَتَجاوز عمَّا دُونَ الشِّرك والكفر من المعاصي لمن يشاء من عِبادِهِ بِفَضْلِهِ، أو يعذِّب بها من شاء منهم بِقَدْرِ ذُنوبهم بِعَدْلِهِ، ومن يُشرك مع الله غَيْرَهُ؛ فقد اختلق ذَنْبًا عَظيمًا، لا يُغفرُ لِمَنْ مات عَلَيْهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

التَّنبيه لما هو موجود في كتابهم من حقيقة الإسلام

أقبل على خطاب أهل الكتاب - الذين أُريد بهم اليهود، بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجَّة عليهم - ما فيه وازِعٌ لهم؛ لو كان بهم وَزْعٌ، وكذلك شأن القرآن ألَّا يُفْلِتَ فُرصة تَعِنُّ من فُرَصِ الموعظة والهدى إلَّا انتهزها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحكماء، والخطباء أنْ يتوسَّموا أحوال تأثُّر نفوس المخاطبين ومظانَّ ارعوائها عن الباطل، وتبصُّرها في الحقِّ، فيُنْجدها حينئذٍ بقوارع الموعظة والإرشاد[2].

عِلَّةُ إضمارِ المُسَمّى، والتّعبير بالوَصْفِ:

خاطب الله تعالى أهلَ الكتاب خطاب مُشافهة مع جميع

(1) لجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 116، 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/78.

علمائهم[1]، ويَدْخُل فيه عامَّة أهل الكتاب، فهو خِطاب لهم قاطبة إثر بيان جناية أحبارهم وأشرارهم؛ فَلِذا اخْتيرَ هنا (إيتاء الْكتَاب) - وهو عامٌّ - واخْتيرَ فيما قبلُ (إيتاءُ نصيبٍ من الكتاب) في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 23]؛ لاخْتصَاصه بعلمائهم[2]، وذلك لما هو موجود في كتبهم من حقيقة نبيِّ الإسلام، وإنَّما كُفْرهم به لمحض العناد والمكابرة والحسد، فلا جرم أنْ هدَّدهم المولى سبحانه بعد هذا النِّداء بِطَمْسِ الوجوه، واللَّعن تحقيرًا لهم؛ لأنَّ الوجه أكرم عضوٍ في الإنسان، وفيه يُكْرَمُ، أو يُهان.

إيتاءُ الكتاب شمولٌ لعامَّة أهله، وإيتاءُ نصيب منه تخصيصٌ بعلمائهم

أثر الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في معنى صلتِهِ:

جُعِلَت الصِّلةُ هُنا في الخِطاب، ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي آية سابقة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لما في الموضعين من تفاوت، فإنَّ المقصودَ - فيما سبق - بيانُ أخذِهم الضَّلالةَ، وإزالةُ ما أُوتوه بمقابلتها بالتَّحريف، وليس ما أزالوه بذلك التوراةَ كلَّها، حتى لا يوصَفوا بإيتائه، بل هو بعضُها، فوُصِفوا بإيتائه، وأمَّا هاهُنا؛ فالمقصودُ تأكيدُ إيجابِ الامتثالِ بالأمر الذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته من حيث إنَّ الإيمانَ بالمصدَّق موجِبٌ للإيمان بما يصدِّقه، والكفرَ بالثَّاني مقتضٍ للكفر بالأوَّل قَطْعًا[3]؛ لكونهم أهل دين سماويٍّ يعلمون حقيقة ما أنزله اللّٰه على النَّبيِّ محمَّد ﷺ وهُمْ مأمورون بالإيمان به.

تأكيدُ إيجابِ الامتثالِ بالأمرِ الذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ جاء في مقام التَّعجُّبِ والتَّوْبيخ، فمُناسبَتُهُ صلة مُؤْذِنَةٌ بتهوين شأن علمهم بما أوتوه من الكتاب، وأمّا هُنا؛ فجاء في مقام التَّرغيب، فَنَاسَبَتْهُ صِلَةٌ تُؤْذِنُ

مجيء الآية في مقام التَّرغيب نَاسَبَهُ صِلَةٌ تُؤْذِنُ بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإِيتَاءِ التَّوْرَاةِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/120.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البَيْضاويّ: 7/186.
(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/185.

بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإِيتَاءِ التَّوْرَاةِ؛ لِتُثِيرَ هِمَمَهُمْ لِلِاتِّسَامِ بِمِيسَمِ الرَّاسِخِينَ فِي جَرَيَانِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى وَفْقِ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ[1].

وليس بين الصِّلتين اختلاف في الواقع؛ لأنَّهم أوتوا الكتاب كلَّه حقيقة باعتبار كونه بين أيديهم، وأوتوا نصيبًا منه باعتبار جريان أعمالهم على خلاف ما جاء به كتابهم، فالَّذي لم يعملوا به منه، كأنَّهم لم يؤتوه[2]. والمعنى: فيما حصل لهم فواته من الخير والطَّاعة بتركه، وهو أهمُّ ممَّا عملوا به؛ لأنَّ فيه صفة النَّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم وبارك.

إيثار الاسم الموصول (ما) دون العلم:

التَّذكير بعظم شأن القرآن، وتشريفُ ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وتحقيقُ كونه من عند الله تعالى

جِيءَ بالصِّلَتَيْنِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾، وقوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ دون الاسمين العَلَمَيْنِ، وهُما: القرآن والتَّوراة؛ لما في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من التَّذكير بعظم شأن القرآن أنَّه مُنَزَّلٌ بإنزال الله، فَعَبَّرَ عنه بالموصولِ؛ تشريفًا له بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وتحقيقًا لكونه من عنده عَزَّ وعَلا، ولِما في قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ من التَّعريض بهم في أنَّ التَّوراة كتاب مُسْتَصْحَبٌ عندهم، لا يعلمون منه حقَّ عِلْمِهِ، ولا يَعْمَلُونَ بما فيه، وللإيذان بكمالِ وُقُوفِهِمْ على حقيقة الحالِ، فإنَّ المعيَّةَ المُسْتَدْعِيَةَ لِدَوامِ تلاوتِها وتَكَرُّرِ المُراجعةِ إليها من مُوجبات العثور على ما في تَضاعيفها المؤدِّي إلى العلم بكون القرآنِ مُصدِّقًا لها، ومعنى تصديقِه إيَّاها: نزولُه حَسْبَما نُعِتَ لهم فيها، أو كونُه مَوافِقًا لها في القصص والمواعيدِ والدَّعوةِ إلى التَّوحيد[3]، فقوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾: وهو الْقُرْآن، عبَّر عنه بالموصول؛ تفخيمًا بإبهامه أوَّلًا، وبمضمون الصِّلة ثانيًا، وتحقيقًا من عنده ثالثًا[4].

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/350، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/350، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.

دلالة الأمر في الآية الكريمة:

في الأمر تهديدٌ ووعيدٌ من التَّخلُّف عن الإيمان بالله خُصوصًا بعد ظهور دلائله

يَحْمِلُ الفعل: ﴿ءَامِنُواْ﴾ مع الوجوب الكثير من التَّهديد والوعيد ببيان العليِّ القادر ﷻ، ومن التَّحذير في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾، والَّذي جعله لذلك الغرض مَضْمُون الآية كُلِّها، حيث تعلو فيها نبرة التَّهديد والوعيد، وقصَّة إسلام عبد الله بن سلام وكعب الأحبار تُصَوِّرُ لنا كيف كان وقع هذا التَّحذير على النُّفوس الواعية من أهل الكتاب[1].

دلالة ضمير التَّكَلُّم:

إقامة الحجَّة عليهم، والتَّأكيد على استحقاقهم اللَّعن، كما استحقَّه من قبلهم

بدأتِ الآية بخطاب اليهود والنَّصارى في ظِلِّ الكناية عَنْهُم بإيتاء الكتاب؛ تأكيدًا على أنَّ ما نَزَّلَهُ ﷻ على المُصطفى ﷺ حقيقةٌ ثابتةٌ ومؤكَّدةٌ في كتابهم، فلا حُجَّةَ لكفرهم به، وهُمُ القوم الذين يَعلمون يَقينًا أنَّ الله سُبحانه مُنَزِّلٌ كتابًا بعد كتابهم، مُصَدِّقًا لما معهم، فكان ضميرُ المُتَكَلِّم في قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ حُجَّةً مُلْزِمَةً لهم بما يعلمون من خَبَرِهِ؛ لذا هَدَّدَهُمُ الحقُّ تبارك وتعالى بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، مُؤَكِّدًا استحقاقهم اللَّعن بضمير المُتَكَلِّم في: ﴿لَعَنَّآ﴾ عند عَدمِ إيمانهم، كما استحقَّ أصحاب السَّبْتِ ذلك، وهي حقيقة مُؤَكَّدَةٌ لديهم - أَيْضًا - ولا يخلو الضَّمير هُنا في المَوْضِعَيْنِ من التَّعظيم المُصاحِبِ لِلتَّأكيد[2].

نُكْتَةُ الإطناب بالاحتراسِ في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾:

في الاحتراس بيانٌ لوحدة المصدر والدَّعوة لجميع الرِّسالات

الاحتراسُ[3] في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ جاء تأكيدًا على أنَّ ما نزَّلَهُ الله لا يُخالف الحقَّ الصَّادِقَ في دينهم؛ لِوِحْدَةِ ما

(1) المحرر الوجيز: 2/63، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/532، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/120.

(2) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/47.

(3) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادة إطنابيَّةٌ في الكلام، يَدْفَع بها المتكلِّم إيهامًا، قد يُفهم من كلامه.

بُعِثَ به الأنبياء والرُّسل في المصدر والمبادئ، فلا مُسوِّغ لجفائكُم له، فهو مُصَدِّقٌ لما مَعَكُمْ[1].

السِّرُّ في تنكير الوجوه دون وصْفٍ:

في التنكير تهويلٌ لِعاقبة التَّكذيب مع لُطْفٍ وحُسْنِ اسْتِدعاءٍ للإيمان

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بالأمر، مُفيدٌ للمُسارَعَةِ إلى الامتثال به، والجِدِّ في الانتهاء عن مخالفته، بما فيه من الوعيد الشَّديدِ الواردِ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، حيث لم يُعَلَّقْ وقوع المتوعَّدِ به بالمخالفة، ولم يصرَّحْ بوقوعه عندها؛ تَنْبيهًا على أنَّ ذلك أَمْرٌ مُحَقَّقٌ غنيٌّ عن الإخبار به، وأنَّه على شفا الوقوعِ، متوجِّهٌ نحوَ المخاطَبين[2]، وقد تجلَّت المبالغة بوضوح في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾، ففي تنكيرِه ﴿وُجُوهًا﴾ تهويلٌ لِلْخَطْبِ مع لُطْفٍ وحُسْنِ اسْتِدعاءٍ[3]، فَنَكَّر ﴿وُجُوهًا﴾؛ لإرادة المبالغة المفيدة للتَّكثير، مع الإشعار بأنَّه أَمْرٌ مَهُولٌ وخَطْبٌ عظيم تُخْلَعُ له القلوب، وهو عذاب عظيم من القادر سبحانه[4].

في تنكيرِ الوجوه تعظيمٌ، وتجنّبٌ للتَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذةِ

وفي تَنْكِيرِه ﴿وُجُوهًا﴾ أَمْرٌ دقيق آخر، وهو تحاشِي التَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذة، فلم يقُلْ: (وجوهكم)، وكان مقتضى السِّياقِ أن يقول: مِن قبْلِ أنَّ نطمِسَ وجوهَكم؛ لأنَّهم هم المهدَّدون، لكن أتى بها على صيغةِ النَّكرةِ تحاشيًا للمواجهةِ بالمؤاخَذةِ[5]، فهو لطف بالمخاطبين لعدم إسنادها إليهم، وذلك حُسْنُ اسْتدعاءٍ لهم إلى الإيمان[6]، وقد يُقال: إنَّ المرادَ بالتَّنكيرِ هنا التَّعظيمُ، أي: وجوهًا معظَّمةً عندكم، فتُطمَس، وهي وجوهُ زعمائِهم الَّذين صدُّوهم عن سبيلِ الله[7] ﷻ.

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّة: 1/358.
(2) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/185.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/49.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(5) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/385.
(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(7) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/385.

بيانُ الحقيقة والمجاز في لفظ الطمس:

أصل الطَّمس: مَحْوُ الأثر وإزالة الأعلام، ومعنى ﴿نَّطۡمِسَ﴾، أي: نمحو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، أو نعميها[1]. هذا؛ إن كان الطَّمس على حقيقته، ويحمل التَّنْكيرُ على هذا المعنى ضَرْبًا من الغرابة والنُّدرة لهذا اللَّوْنِ من العذاب الذي لَمْ يعهد لأحد رؤيته، فيُسَلِّط اللَّه عَلَيْهِمْ مَا يُفْسِدُ بِهِ مُحَيَّاهُمْ، فَإِنَّ قُدْرَةَ اللَّه صَالِحَةٌ لِذَلِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الطَّمْسُ مَجَازًا عَلَى إِزَالَةِ مَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ مِنِ اسْتِقَامَةِ المَدَارِكِ، فَإِنَّ الْوُجُوهَ مَجَامِعُ الْحَوَاسِّ[2].

وجـهُ الحقيقةِ أنْ يسلّط تعالى عَلَيْهِمْ مَا يُفْسِدُ بِهِ مُحَيَّاهُمْ، وفي المجاز إِزَالَةٌ لِمَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ مِـنِ اسْتِقَامَةِ المَدَارِكِ

أو مجازًا في الوجوه، والمراد بالوجوه عندئذٍ: الوجهاء وعلية النَّاس، فتكون الوجوه اسْتَعَارَة شبِّهوا بها في الشَّرافة والقدر والمنزلة[3]، أي: من قبل أن نغيِّر أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم، ونكسوهم صغارهم[4]، فَهُوَ وَعِيدٌ بِزَوَالِ وَجَاهَةِ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، وَرَمْيِهِمْ بِالْمَذَلَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا هُنَاكَ أَعِزَّةَ ذَوِي مَالٍ وَعُدَّةٍ[5].

يحتملُ المجازُ الاسْـتِـعَـارَةَ تشبيهًا لهم بالشَّرافة ورفعة المنزلة

دلالة الفاء بين التَّسبيب والتَّعقيب في قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾:

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ عَطْفٌ؛ إن أريد به مُجَرَّدُ التَّعْقِيبِ، أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْصُلَ الْأَمْرَانِ: الطَّمْسُ وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ، أي: إنَّهم تُوعِّدُوا بعقابين: أحدهما عُقَيْبَ الآخر، ردُّها على أدبارها بعد طَمْسِهَا[6].

العطف بالفاء إظهارٌ للوعيد الشَّديد في رَدِّهم على أدبارهم حِسًّا ومَعْنًى

وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَجَازًا بِمَعْنَى: الْقَهْقَرَى، أَيْ: إِصَارَتُهُمْ مصير بئيس، فَنَطْمِسها عن الهدى، فَنَرُدُّها على أدبارها، أي: على ضلالتها، والمقصود بيان إلقائها في

(1) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/187.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(6) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.

أنواع الخذلان وظُلُماتِ الضَّلالات، ونَظِيرُهُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24] الآية[1]، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً، وَهُوَ رَدُّهم مِنْ حَيْثُ أَتَوْا، أَيْ: إِجْلَاؤُهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّام، وَالْفَاءُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِلتَّعْقِيبِ وَالتَّسَبُّبِ مَعًا، وَالْكَلَامُ وَعِيدٌ، وَالْوَعِيدُ حَاصِلٌ، فَقَدْ رَمَاهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، ثُمَّ أَجْلَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَذْرِعَات[2].

وإن كانت الفاء في ﴿فَنَرُدَّهَا﴾ للتَّسبيب؛ فإنَّ تَغَيُّرَ تخطيط الصُّور وإزالتها سبب؛ لكون الوُجُوه مثل: الأدبار، وإنْ أُريدَ بالرَّدِّ على أَدْبَارِها: رَدُّها عَلَى أدبارها بعد إزالة التَّخْطيط، فيكون الفاء للتَّعقيب، ويكون وعيدًا بِعِقابَيْن: أحدُهُمَا: عُقَيْبَ الآخر بدون السَّببيَّة (ردُّها عَلَى أدبارها بعد الطَّمس)، وفي الوجه الثَّاني: عُدَّ رَدُّ الْوُجُوه إِلَى أدبارها بدون تَغْيِيرِ تَخْطيطِ الصُّور بقرينة المُقابلة، فَيُنْكِسُ الوُجُوهَ إِلَى الخَلْفِ، والقفا إِلَى القُدَّام[3].

والصّواب: القطع بالتّهديد بمسح الوجوه، فلا يكون فيها عينٌ ولا حواسٌّ ولا أثرٌ لأيٍّ من ذلك، فتكون كهيئة القفا، وهذا المعنى لا ينبغي أن يُعْدَلَ به، ولا أن يُتَرَدَّد فيه، وإنَّما منع من وقوعه أمران: أوَّلهما: كون عموم بعثة النَّبيِّ رحمة عامَّة، لا يعجَّل فيها عذاب الخسف والمسخ والاستئصال بأحد بعينه؛ والنَّبيُّ بين ظهرانيهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33] شاهد قائم مفصح مبيِّن عن ذلك.

والثَّاني: أنَّ الوعيد الشَّديد كان معلَّقًا على عدم إيمانهم، فآمن منهم خلق، وأظهر الإيمان تحاميًا به وجُنَّةً فيه، أقوامٌ، وانخنس عن لَيِّهِ وَغَيِّهِ طوائف، وأراد الله أن يذلَّهم بإنزالهم على حكم رسول الله فيهم عنوة، فيكون هو الآمر والمباشر؛ إظهارًا لعزَّته وإعلاء لشأنه، وقصَّة سعد بن معاذ فيهم شهيرة، ولعلم الله أنَّ صفيَّة بنت حييِّ بن أخطب - وهي فيهم وقتذاك - ستكون أُمًّا للمؤمنين وزوجًا لرسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - وهي من ولد نبيِّ الله ورسوله هارون، وعمُّها رسول الله وكليمه موسى أخو جدِّها هارون النَّبيِّ، وستكون صفيَّة لرسول الله خاتم النَّبيِّين وسيِّد الخلق أجمعين محظيَّة

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/97.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.

عنده، وستحمل من ميراث النُّبوَّة علمًا تنشره من بعده، فقد روت عنه عشرة أحاديث.

سِرُّ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾:

ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، نَلْعَنُهُمْ، أي: نُخْزيهِمْ بالمَسْخِ، كما مَسَخْنَا أصحاب السَّبْتِ[1]، والضَّمير في: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ راجع للوجوه؛ إنْ أُريدَ الوُجهاءُ، أو لأصحاب الوُجوهِ؛ لأنَّ المَعْنى مِنْ قَبْلِ أن نَطْمِسَ وُجُوهَ قَوْمٍ؛ إذ الوُجُوه تَدُلُّ عَلى أصحابها، أو التَّقدير: وُجُوهَ قَوْمٍ، أَوْ يَرْجِع إلى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على طريقة الالْتفَاتِ من الخطَاب إلَى الغَيْبَةِ؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُنادًى حَقيقَةً[2]، كما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يُونُس: 22]، وفي هذا بيانٌ لِذلَّةِ كَفَرَةِ اليهودِ عبر العُصورِ، وطَرْدِهِمْ من رحمة اللّه الموجبِ لِمَسْخِهِمْ وخِزْيِهِمْ. والمقصود: ذهاب صورة الحسِّ، وزوال أثر موضعها من الوجه بالكُلِّيَّة.

كَفَرَةُ اليهودِ مطرودون من رحمة الله، مذمومون عبر العُصورِ

وينبغي أن يكون مرجع الضَّمير في: ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ الَّذين كتموا صفة النَّبيِّ في التَّوراة، وأنكروا وجودها، كما أنّ قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، أي: الَّذين اعتدوا فيه منهم.

سِرُّ التَّعريف بالإضافة:

ومن الإضافة ما حصل معنى التَّحقير في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، هذه الإضافة دلَّتْ على تحقير المُضافِ، وحَطَّتْ مِنْ قَدْرِهِ، وبيان ذلك: أنَّ التَّهديدَ في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ حَمَلَ الخِزْيَ والعارَ والتَّحْقيرَ لِلْيَهودِ، حيث ذَكَرَهُمُ المَوْلى ﷻ بِتِلْكَ اللَّعْنَةِ الَّتي نَزَلَتْ بِأَجْدادِهِمْ،

في الإضافة تحقيرٌ للمتلاعبين بدين الله والحطُّ من شأنهم

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشَّاف: 1/518.

(2) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشَّاف: 1/518، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/188.

فَمَسَخَهُمْ قِرَدَةً وخَنَازِيرَ، وهم يَعْلَمُونَ ذَلِكَ يَقينًا، بدَليلِ قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: 65][1].

بلاغة التَّشْبيه المُرْسَل:

بـيـان معنى اللَّعنة المتوعَّدِ بـهـا بربطـهـا بأبشع لعنة في تاريخ اليهود

لا شَكَّ أَنَّ اللَّعْنَ في كِلَا طَرَفي التَّشبيه مقصودٌ به اليهود، غير أنَّه جاء على طريقة الوعيد؛ إذ إنَّ اللّه ﷻ تَوَعَّدَ اليهود المعاصرين لرسول اللّه ﷺ بمثل ما حصل لأجدادهم المُعْتَدينَ في السَّبْتِ، فالمُشَبَّهُ: اللَّعن المتوعَّد به اليهود، والمُشَبَّهُ به: لَعْنَةُ أَصحاب السَّبْتِ، ووجه الشَّبَهِ: الغضب الحاصل منه اللَّعنتان بالمَسْخِ والتَّبديلِ، حيث مَسَخَ أجدادهم قِرَدَةً وخَنَازيرَ، وقد اختلف المُفَسِّرونَ في ماهيَّة اللَّعْنِ ووقْتِ حُدوثِه: فَذَهَبَ فريق إلى أَنَّ اللَّعْنَ هو المَسْخُ إلى قِرَدَةٍ وخَنَازِيرَ[2]، وَوَقْتُ حُدوثِهِ الدُّنْيا، مُسْتَدلِّينَ بمُبادرة بعض اليهود بالإسلام حال سماعهم هذه الآية[3]، ومنهم من رأى أَنَّ وقت حدوثه يكون في آخر الزَّمان، ومنهم من قال: يكون في الآخرة عند الحشر، وسيقع - لا محالة - أحدُ الأمرين أو كلاهما على سبيل التَّوزيع،[4] أي: البعض يناله الطَّمس والرَّدُّ على الأدبار، والبعض الآخر يُلْعَنُ، أي: يُمسخ إلى قردةٍ وخنازير، بدليل عدم حدوث هذا الأمر المَهُولِ، لا في زمن الرَّسول ولا في ما بَعْدَه، بينما ذهب آخرون: إلى أَنَّ المُراد من التَّشبيه بِلَعْنِ أصحاب السَّبْتِ الإغراق في وصفه فقط[5]، وعلَّل ذلك: بأَنَّ الوعد مشروطٌ بالإيمان ألَّا يقع معه، وقد آمن منهم أناسٌ[6].

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/89.
(2) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/509، وابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/63.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/272.
(4) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/532.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/50.
(6) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 2/272.

وقد مرّ بنا قريبًا أنّ لعدم حدوث المسخ أسبابًا عدَّة، منها: عموم الرَّحمة ببعثته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33].

ويُهِمُّنا من ذلك كلِّه ثمرة الخلاف: فبناء على الطَّرف الأوَّل؛ يكون طَرَفَا التَّشبيه حِسِّيَّيْن، والوجه: تلك الحالة التي يُمْسَخُ إليها اليهود سواء في الدُّنيا أو الآخرة، أمَّا على الرَّأي الثَّاني؛ فيكون من قبيل تشبيه شيء عقليٍّ بشيء حِسِّيٍّ[1].

فقد خَدَمَ حرف الجرِّ (الكاف) - الذي معناه: التَّشبيه - السِّياقَ أيَّما خدمة؛ لأنَّه عمَّق معنى اللَّعنة المُتوعَّدِ بها بربطها بأبشع لعنة في تاريخ اليهود، وهيَ مسخ بعض أجدادهم إلى قردة وخنازير، وهم يوقنون بذلك حقَّ اليقين؛ ولذا نرى من هداه الله منهم إلى الإسلام أَسْرَعَ إلى رسول الله ﷺ مُعْلِنًا إسلامه مخافة أن يمسخ قبل ذلك[2]، وكان هذا الحرف وما جسَّده من صورة نزل كصاعقة عنيفة الأثر، هزَّت قلوب الصَّالحين من أهل الكتاب، وأرشدتهم إلى الصِّراط المستقيم.

رؤية تفكُّريَّة في معنى التَّشبيه ونوعه:

المتوعَّد به على كتمان صفة النَّبيِّ أعظم ممَّا حاق بالَّذين اعتدوا في السَّبت؛ لأنَّ جُرْمهم أقبح، وضرره أفدح

والذي يقتضيه سداد النَّظر، وصواب الفِكر أن يكون التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ تشبيهًا مقلوبًا، على غير بابه، بكون المشبَّه هنا أقوى من المشبَّه به في هذا التَّشبيه، لعلَّة المناسبة، فإنَّ كتمان الَّذين أوتوا الكتاب (صفة محمَّد رسول الله خاتم النَّبيِّين ﷺ) أبعد أثرًا، وأعظم خطرًا، وأكثر جُرمًا، وأكبر إثمًا من الاعتداء في السَّبت، والسَّبت يوم، وكتمان صفة النَّبيِّ الخاتم محمَّد رسول الله ﷺ اعتداء على الإيمان كلِّه ومستقبل

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 2/404.
(2) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/509.

الدَّينونة للّه ربِّ العالمين، واعتداء الأسلاف في فرع من فروع شريعة اللّه إلى قوم بعينهم، واعتداء الأخلاف في أصل من أصول الاعتقاد في دين اللّه الَّذي ارتضاه للبشريَّة كلِّها إلى قيام السّاعة، ولا مناسبة بين البابين من أيِّ وجه في الجرم أو في العقاب، فأصل أصول رسالات السَّماء جميعها قائم على ما خالف فيه المتأخِّرون؛ إذ محمَّد رسول اللّه ﷺ قد بشَّر به جميع الأنبياء أممَهم، وأعلنوا للّه عهودهم على تصديقه والتَّسليم له، وبلّغوا أممهم ذلك عنه وعن صفات أُمَّته، على حين انحصرت مخالفة الأسلاف المسوخين في فرع تشريعيٍّ صَحِبَهُ دون ما صحب مخالفة المتأخِّرين من استخفاف وتهوُّر، واستهزاء وتنكُّر، فكيف يقال بالتَّسوية بين العقابين أيًّا كان كلٌّ منهما؛ جريًا على قاعدة التَّشبيه، أو أن يكون السّابق أصلًا مقيسًا عليه اللّاحق، فيكون الوعيد في السّابق أمكن منه في اللّاحق وأظهر، مع أنّ الآيات شاهدة بأنَّ طمس الوجوه بردِّها على أدبارها، المُهدَّد به، لا عهد للبشريَّة كلِّها بمثله، فهو أشنع وأبشع وأقذع وأفظع، ممَّا عرفه اليهود في تاريخهم كلِّه، حتى ما جرى من قبلهم من طمس في قوم لوط، كان طمس أعيُن لا طمس وجوه؛ لِئلَّا يتَّبعوا أضياف لوط من الملائكة، وقد ألمحنا من قبلُ إلى ذلك.

ويزاد على ذلك: أنَّ التَّنزُّل في التَّهديد بـ﴿أَوۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ بما يفيد التَّنويع أو التَّنصيص على الحدِّ الأدنى من العقاب المتوقَّع إيقاعه بالمجرمين منكري أظهر النُّبوَّات بأقوى البيِّنات، وأوضح الآيات، وأعلى الدَّلالات، فإنّ هذا التَّنويع المسمَّى تخييرًا، ليس قاضيًا على العقوبة بالمماثلة، إذ المراد بالتَّشبيه – لو كان على بابه – المصدر، وهو (اللّعْنُ)، ويكون لكلٍّ بحسبه، فلا يستلزم المماثلة من كلِّ وجه، بل يكفي فيه مماثلة الإطلاق والتَّسمية، وإنَّما أُتيَ من توهَّم خلاف ذلك من اعتقاد أنَّ المشبَّه به: هو (اللَّعنة) على وزن اسم المرَّة – بفتح اللَّام الثَّانية المدغَم فيها – أو على وزن اسم الهيئة بكسرها، فمِن ثَمَّ اعتقد المماثلة، وليس بذلك؛ إذ هو فوق مخالفته الظَّاهرة للنَّصِّ، مخالف للعقل، وللقياس، وللاستقراء التامِّ، وما يقوم عليه سبْر وتقسيم، ولأصول عاصمة عديدة، وسبحان اللّه وبحمده القائل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: 2].

علّة إضافة الأمر إلى الاسم الجليل:

قوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ خُرِّجَ مخرج المثالِ، وفائدته: تَقْريرُ

ما سَبَقَ من الوعيد[1] بالإخبار عن جريان عادة الله في الأنبياء المتقدِّمين: أنَّه مَهْمَا أخبرهم بإنزال العذاب على أقوامهم فعل ذلك لا محالة، فكأنَّه قيل لهم: أنتم تعلمون أنَّ تهديدَ الله في الأمم السَّالفة واقعٌ لا محالة، فاحترزوا الآن، وكونوا على حَذَرٍ من هذا الوعيد[2]؛ فالمقصود هُنا: هو ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، ويُرادُ بالأَمْرِ: المأمور، فهو مَصْدَرٌ وَقَعَ مَوْقِعَ المفعول، فالمعنى: أنَّه متى أراده؛ أَوْجَدَهُ[3]، ووَضْع الاسم الجليل مَوْضِعَ الضَّمير بطريقِ الالتفاتِ؛ لِتَرْبِيةِ المَهابةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ ما في الاعتراضِ من الاستقلالِ[4].

تَرْبِيةُ المَهابةِ، وتعليل ما سَبَقَ وتعظيمه تَخْويفًا وتهديدًا ووعيدًا بوقوعه لا محالة

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾:

يجوز أنْ تكونَ جملةُ المطْلَعِ "مستأنفةً، وقعتْ اعتراضًا بين قوارعِ أهلِ الكتابِ، ومواعظِهم، فيكون حرفُ ﴿إِنَّ﴾ لتوكيدِ الخبرِ لقَصْدِ دفْعِ احتمالِ المَجَاز أو المُبالغة في الوَعيدِ، وهو إمّا تمهيدٌ لِمَا بَعْدَه لتشْنيعِ جُرْمِ الشِّرك باللهِ ليكونَ تمهيدًا لتشنيعِ حالِ الذين فَضّلوا الشِّرك على الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التَّعجيبِ من شأنِهم الآتي في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، أي فكيفَ ترْضَوْن بحالِ من لا يَرْضى اللهُ عنه؟ والمغفرة على هذا الوجه يصح حملها على معنى التجاوز الدنيوي، وعلى معنى التجاوز في الآخرة على وجه الإجمال.

تشنيعُ جُرْمِ الشِّرك وتَبْشيعُ حال أهله وتعجيبُ شأنهم، أو تعليمُ حُكْم في مغفرة ذنوب العصاة

وإما أنْ يكونَ استئنافَ تعليم حُكْمٍ في مغفرة ذنوبِ العُصَاة: ابتدئ بمحكم، وهو قوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وذُيِّل بمتشابه، وهو قوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ فالمغفرة مراد منها التجاوز في الآخرة"[5].

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/279.
(3) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/245.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/81.

فالكلام هنا مستأنف مقرِّر لما قبله من الوعيد، ومُؤَكِّدٌ وجوب امتثال الأمر بالإيمان؛ حيث إنَّه لا مغفرة بِدُونِهِ كما زعم اليهود، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، وفيه – أيضًا – إزالة خوفهم من سوء الكبائر السَّابقة؛ إذا آمنوا[1].

الفصل على الاستئناف البيانيّ تقريرٌ للوعيد السّابق، وتوكيدٌ لوجوب امتثال الأمر بالإيمان، وتهديدٌ بعذاب الدّنيا

وَتَتَضَمَّنُ الْآيَةُ تَهْدِيدًا لِلْمُشْرِكِينَ بِعَذَابِ الدُّنْيَا، يَحِلُّ عليهم، فَلَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ بَعْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يُونس: 98]، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَكُونُ حَرْفُ ﴿إِنَّ﴾ فِي مَوْقِعِ التَّعْلِيلِ وَالتَّسَبُّبِ، أَيْ: آمِنُوا بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ؛ لِأَنَّ اللَّه يَغْفِرُ مَا دُون الْإِشْرَاكِ بِهِ[2].

نكتة توكيد نفي الغفران:

الغفران عند الخالق سبحانه معلّقٌ بالتوبة، والإقلاع

أكّد تعالى عدم الغفران في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾" بـ ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد التوكيد، فلا يرجو مشرك غفرانا، أيا كان نوع الشرك، إلا أن يقلع عنه، فإن اللّه تعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا"[3].

سِرُّ تَكْرارِ ذِكْرِ الفعل ﴿يَغْفِرُ﴾:

سرُّ التكرار حاجةُ المعنى إلى التَّفرقة بَيْنَ الشِّرْكِ وما دونه من الخَطايا

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ عَطْفٌ على خبر ﴿إِنَّ﴾، لا مُسْتَأنَفٌ، أي: يَغْفِرُ ما دون الشِّرك من المعاصي، صغيرًا كان أو كبيرًا، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ تَفَضُّلًا عليه وإحسانًا[4]. وقد تكرَّر الفعل ﴿يَغْفِرُ﴾؛ حيث أطلق اللّه تعالى نَفْيَ مَغْفِرَةِ الشِّرك، وأثبت مَغْفِرَةَ ما دونه مقرونة بالمشيئة؛ لأنَّ الشِّركَ هو الظُّلْمُ الَّذي لا ظُلْمَ بعده، والسَّبَبُ في هذا التَّكرار: حاجة المعنى إلى التَّفرقة بَيْنَ الشِّرْكِ وما دونه بأنَّ اللّه

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/51.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1709.
(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/201.

لا يغفر الأوَّل البتَّة، ويغفر الثَّاني لمن يشاء[1]، فاختلاف الحكمين في أمر من أهمِّ الأمور العقديَّة أَدَّى إلى ذكر المُسْند الثَّاني؛ فالآية بُرْهَانٌ ساطع على وجوب تَنْزيهِ العبادة للّه ﷻ عن شوائب الشِّرْك والرِّياء والسُّمعة وإخلاص القلب فيها، كما أنَّها باب من أبواب فضل اللّه ورحمته على عباده؛ لِمَا تَحْمِلُهُ من بشرى المغفرة من الرَّبِّ الغفور الرَّحيم، مهما بلغت خطايا العبد؛ ما لم يُشْرك باللّه شيئًا، إذا شاء سبحانه ذلك[2].

فائدة التَّعْبيرِ باسم الإشارة:

بيان الظُّلْمِ العظيم الذي لا ظُلْمَ بعده في القبح والشِّدَّة

جاء اسم الإشارة المركّب من: (الذّال للإشارة، والألف للتَّقوية، واللّام للبعد، والكاف للخطاب)؛ لتعيين الإشارة للشِّرك دلالة على بُعد منزلته في القبح، وأنَّه ظلم عظيم، تتصاغر كلُّ الذُّنوب؛ إذا قورنت به، أو ذكرت معه؛ لأنَّه تسوية بين الخالق الَّذي لا نعمة إلَّا وهي منه، وبين المخلوق الَّذي لا نعمة له أصلًا، فهو كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[3].

سِرُّ تعليق الموصول بالمشيئَةِ:

تبشير للمسلمين بعد النَّذارة والتَّحذير، حتَّى يكونوا على خَوْفٍ وطَمَعٍ

في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما: أنَّها تقتضي أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ على ذنبٍ دون الشِّرك لا يُقطع عليه بالعذاب؛ وإنْ مات مُصِرًّا. والثَّاني: أنَّ تعليقه بالمشيئة فيه نفعٌ للمُسْلمين، وهو أنْ يكونوا على خَوْفٍ وطَمَعٍ[4]؛ سعيًا إلى تحصّل الرّضا، والفوز بالمغفرة.

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53.
(2) ابن حجر، الكافي الشَّافي: 1/273.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/397.
(4) ابْنُ الجَوْزيّ، زادُ المَسير: 2/103.

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾:

بيان عِلَّةِ عَدَمِ مَغْفِرَة الله للشِّرْكِ ومغفرة ما عداه

جملة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة مَسُوقَةٌ لبيان عِلَّةِ عَدَمِ المَغْفِرَة للشِّرْكِ والكفر، ومغفرة ما عدا الشِّرك[1]، وفيه تحذيرٌ من الوقوع فيهما، واقتراف وجوههما.

سِرُّ إظهار الاسمِ الجليل في موضعِ الإضمار:

تربيةُ مهابة الله في القلوب وتقبيحُ الإشراك به

إظهارُ اسمِ الله الأعظم في موضعِ الإضمار؛ تربيةٌ للمهابة، وإدخال الرَّوعة في القلوب، وزيادة تقبيح الإشراك، وتفظيعُ حالِ مَن يتَّصفُ به[2].

سِرُّ التَّعبير بالافتراء بَدَلَ الكَذِبِ:

الافتراء اختلاق ما لا يَصْلُحُ قولًا وفِعْلًا يشمل الكذب والشِّرك والظُّلم

الافتراءُ كما يُطلق عَلَى الْقَوْلِ يُطلق عَلَى الْفعْل، وكَذَلكَ الاختلاق، والافتراء أخصُّ من الكذب، وظاهِرُه أنَّه مُخْتَصٌّ بالقَوْل حَقيقَةً، وإطلاقه عَلَى الْفعْل مجاز، فكما يكون الشِّرك بالْقَوْل يكون بالْفعْل، فلا بُدَّ من التَّعميم[3].

وإنَّما جعله الله تعالى (مُفْتَرِيًا)؛ لأنَّه قال: زُورًا وإفكًا بِجُحودِهِ وحدانيَّة الله، وإقرَارِه بأنَّ لله شَريكًا مِنْ خَلْقِهِ وصاحبةً أو ولدًا، فَقائلُ ذلك مُفترٍ، وكذلك كلُّ كاذبٍ، فهو مُفْتَرٍ في كذبِهِ مُختلِقٌ له[4].

الافتراءُ مفسدةٌ كالقطع؛ ولذا غلب استعماله قرآنيًّا في مواطن الإفساد؟

أصلُ الافتراء: من الفَرْي، وهو القَطْعُ، ولكون قطع الشَّيءِ مَفْسدة له غالبًا؛ غلب على الإفساد، واستُعملَ في القرآن، بمعنى: الكذب والشِّرك والظُّلم، فهو ارتكابُ ما لا يصلح أن يكون قَوْلًا أو فِعْلًا، وهو الأليق بوصف المُشْرِك، فيقع على اختلاقِ الكَذِبِ وارتكاب الإثم، وهو المُراد هُنا، وهل هو مُشْتَرَكٌ بين اختلاق الكذب، وافتعال

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 8/451.

ما لا يصلح، أم حقيقة في الأوَّل، مَجَازٌ مُرْسَلٌ أو استعارة في الثَّاني؟ قولان: أَظْهَرُهُمَا عند البعض الثَّاني، ولا يلزم الجمع بَيْنَ الحقيقة والمجاز؛ لأنَّ الشِّرْكَ أَعَمُّ من القوليِّ والفعليِّ، فالمراد معنًى عامٌّ، وهو ارتكاب ما لا يصلح[1].

بيانُ متشابه ألفاظ الآيات:

ذكْـرُ الـضَّـلالِ يـنـاسـبُ أهـلَ الـكِـتـابِ، واعـتـداءهـم وتـحـريـفـهـم، وذكـر الافـتـراء يناسب ما قبله

تكرَّر هذا الوَعيد في آية أخرى من هذه السُّورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]؛ لبيان أنَّ الشِّرْك أَبعَدُ ضَلالًا، ووجه اختلاف تَعْقِيبِ الأُولى بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، وتعقيب الثَّانية بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]؛ أنَّه لَمَّا وَقَعَ قَبْلَ الآيَةِ الكريمة ذِكْرُ أهل الكتاب وذِكْر اعتدائهم وتحريفهم مِنْ لَدُنْ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النِّساء: 44]، ثُمَّ قال بَعْدَ هذا: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وهذا إفصاح بِكذبِهِمْ وافترائهم، ثُمَّ أَتْبَعَ ما ذَكَرَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ ناسب ما تقدَّم من أوصاف الشِّرك الافتراءَ الَّذي هو أَخَصُّ صفات مَنْ كَذَبَ من أهل الكتاب، من أنَّ المُشْرِكَ مُفْتَرٍ، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، ولَمَّا لم يَتَقَدَّمْ مِثْل ذلك في الآية الأخرى، إنَّما تَقَدَّمَ قَبْلَهَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النِّساء: 145]، وقبلها ما يَخُصُّ مُنافقي أَيَّام نَبِيِّنَا - ﷺ - مِنْ لَدُنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النِّساء: 105]، ثُمَّ قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [النِّساء: 107]، فلم يَقَعْ في هذه الآي ذِكْرُ تحريفٍ ولا افتراء،

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53.

إنَّما ذُكِرَ منافقو أيَّامه - ﷺ - بِنفاقِهِمْ وما صدر منهم من غير الكذب والافتراء، فَنَاسَبَ ذلك ما بُنِي عليه من قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾، كما ناسب قوله في الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ما تَقَدَّمَهُ، وبُنِيَ عليه، وجاءَ كُلٌّ على ما يَجِبُ، ولو أُعْقِبَتِ الأُولى الثَّانية، والثَّانية بما أُعْقِبَتْ به الأُولى؛ لَمَا ناسب على ما تَقَدَّمَ[1].

عــرف اليـهـودُ صحّة نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ ومع ذلك افتروا عليه

وخَتَمَ الآياتِ مَرَّةً بقولِهِ: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾، ومَرّةً بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾؛ لأَنَّ الأَوَّل: نَزَلَ في اليهود، وهُمْ الذين عَرَفُوا صِحَّةَ نُبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ من التَّوراة، فَكَذَّبُوا، وافْتَرَوْا على اللّه ما ليس في كِتابهم، والثَّاني: نَزَلَ في الكُفَّارِ والمُنافقينَ، ولم يكن عِنْدَهُمْ كتاب، فيرجعوا إليه، فَكانَ ضَلالُهُمْ أَشَدَّ[2].

ويعني على قول المصدر: أنَّه أظهر في وصفهم من الافتراء، بما يعني: أنَّها أفعليَّة إضافيَّة لا مطلقة، وليس بذاك؛ إذ اليهود أصل الأمم في الشَّرِّ، والنصُّ قاض بذلك: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 60]

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيْتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ

لَا يَكَادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِيتَاءِ وَالْإِعْطَاءِ، لَكِنْ نَجِدُ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ بَعْضَ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِهِ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِيتَاءَ أَقْوَى مِنَ الْإِعْطَاءِ فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَانِي،

(1) ابْنُ الزُّبَيْرِ، مَلاكُ التَّأْويل، ص: 105 – 106.

(2) الفَيْروزآباديّ، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 1/174، وابن بَرّي، مسائل منثورة في التَّفسير: 18/41.

فَعطوْتُ، وَلَا يُقَالُ فِي الْإِيتَاءِ: أَتَانِي، فَأَتَيْتُ، وَإِنَّمَا يُقَال: آتَانِي، فَأَخَذتُ، وَالْفِعْلُ الَّذِي لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ أَضْعَف فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ مِن الَّذِي لَا مُطَاوِعَ له[1].

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمْرَان: 26]؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ شَيْءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: 269] والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظيمٌ أَيضًا، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحِجْر: 87]؛ لِعِظَمِ الْقُرْآنِ وَشَأْنِه[2]. وفي السُّورة: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النِّساء: 54].

في الإيتاءِ مَعْنى الوُجوبِ والالْتِزامِ، وفي الإعْطاءِ مَعْنى التَّفَضُّلِ والإكْرامِ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الإيتاء فِيهِ مَعْنَى: الْوُجُوبِ وَالالْتِزَام، أَمَّا الْعَطَاءُ؛ فَفِيهِ مَعْنَى: التَّفَضُّلِ وَالْإِكْرَام، فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَد اللَّه الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُود: 108]، وقال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النَّبَأ: 36].

وليس بظاهر، والصَّواب: أنَّ الإيتاء قد يكون منه بِخُفْية ولطف، أمّا الإعطاء؛ فعلانيةٌ؛ وعليه، فقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضُّحى: 5]، من معناه: أن يُعلي شأنك، ويظهر كرامتك، ويقبل شفاعتك، ولا يردَّ سؤالك، وذلك على رؤوس الأشهاد أمام الخلائق، وانظر إلى ذكره معه في الأذان بالشّهادتين، فإنَّه من ذلك؛ إذ نزلت قبل مشروعيَّة الأذان.

الإيتاءُ عَامٌّ في الأُمورِ المادِّيَّةِ والمَعْنَويَّةِ، والإعْطاءُ مُخْتَصٌّ بِالمادِّيَّةِ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْعَطَاءَ يَكُونُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ، وَيُفِيدُ التَّكْرَارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يَا مُحَمَّد ﷺ - كَثِيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

(1) السُّيوطيّ، الإتْقان: 2/367.
(2) الكَفَويّ، الكُلِّيّات، ص: 212.

فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى: 05]، أَيْ: سَيَكُونُ عَطَاءُ اللَّهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[1].

أَمَّا الإيتاء؛ ففي الأشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20][2].

الإعْطَاء دَلِيلُ التَّمَلُّكِ، والإيتَاءُ قد يَلحقه النَّزْعُ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ فِي الْإِعْطَاءِ دَلِيل التَّمَلُّكِ دُونَ الْإِيتَاءِ[3]، فَالْإِيتَاءُ يَشْمَلُهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْلِيكًا بالنَّظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: 175، 179]، ولو عُبِّر عنه بأنَّه يتوقَّف على قبول المُؤْتى؛ إلماحًا إلى معنى الدُّعاء النَّبويِّ: "واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها عليك قابليها، وأتمَّها علينا"[4]؛ لكان بصرًا وسدادًا، وَلَكِنَّ الْعَطَاءَ تَمْلِيكٌ؛ فلذا عُبِّرَ به في الآية الفذَّة الجامعة: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، وَالْإِيتَاءُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ تَمْلِيكًا؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ هُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الْأَخْذِ لَهُ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْإِعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى التَّمْلِيكِ، فَيُقَال: أَعْطَاهُ مَالاً؛ إِذَا مَلَّكَهُ إِيَّاهُ[5]، والمعاني تتداخل، فلا يكاد يخلص معنى دون أن يدخله شيء من معنًى آخر، ألا ترى أنَّ الزَّكاة تملُّك لمصْرفها من أحد الثَّمانية؛ ومع ذلك، فالتَّعبير الدَّائم عنها بالإيتاء، يملأ الخيال، ولا يفارق البال.

(1) الكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإتْقان: 2/367.
(2) لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعْبِير في القُرْآنِ الكَرِيم، ص: 71 - 77.
(3) الكَفَويّ، الكُلِّيَّات: 1/360، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 86.
(4) سنن أبي داوود، الحديث رقم: (969)، والحاكم: 1/265، وقال: (صحيح على شرط مسلم)، ووافقه الذَّهبيّ: 1/26، وبنحوه: البخاريُّ في الأدب المفرد، وعنه الألباني في صحيح الأدب المفرد: 630.
(5) السُّيوطيّ، الإتْقانُ/197.

الإنزال والتَّنزيل:

الإنـزال دَفْعِيٌّ، والـتَّـنـزيـلُ تدريجيٌّ

يُطلقُ الإنزالُ: على ما يكون دفعةً واحدة[1]، ويطلق التَّنزيل: على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، وغالبًا ما تكون دلالته على التَّدريج هي من خارج، فالإنزال دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]؛ وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)، فإنَّه بِنَاءٌ للمبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمُومٌ وخصُوصٌ، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنَّه قد يدلُّ على معنى التَّدْريج، وقد لا يدلُّ[2]، ولا يُشْكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوع التَّعبير عَنْ نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم نُزولَيْنِ: دَفْعِيًّا إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتدريجِيًّا بحسب الوقائع والأحداث[3].

الطَّمس، والطَّلس، والدَّرس:

الطَّـمسُ مَحْوُ الأثـــر وإزالـــة الأعـــلام، وهـو أنـسـب لـزوال معالم الوجوه

ذكرَ الراغب أنّ: "الطَّمس والطَّلس والدَّرس يتقارب، ولكن الطمس زوال الأعلام المماثلة، قال:

وبلدةٍ طامسةٍ أعلامُها*** .....[4]

والطلس زوال الصورة، ومنه قيل: (درهم مطلس)، إذا لم يكن عليه نقش، والدرس قد يقال في الأثر الخفي"[5]. ومن هنا فالتعبير بالطمس في الآية أنسب لزوال معالم الوجوه؛ لكون أصل الطَّمس: مَحْوَ الأثر وإزالة الأعلام، وطمس الوجوه: محو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، أو تعميتها[6].

---

(1) السَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (نزل)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 79، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3.

(2) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (نزل).

(3) أبو شامة، المُرْشِدُ الوَجيز، ص: 17، والسِّيوطيّ، الإتقان: 1/146.

(4) شطر البيت للشاعر: القطامي التغلبي، وعجزه: يضغو جميعاً بومُها وهامُها، ينظر: ديوانه، ص: 162، ومعنى: (يضغو): يصيح.

(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/1262.

(6) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»